﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧﴾ [النبأ: 6 - 7]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

دلائـلُ الـقُـدرة الغرّاء تدعو إلى الإيمانِ بالبَعثِ والجَزاء

بعدَ أنْ قرَّر النَّظمُ الكريمُ في مَطلَعِ السّورة عِظَمَ (النّبأ) الَّذي كذَّبوا به، ووبّخَهم على تساؤُلِهم فيه، أتى بالدَّليلِ القاطِعِ الَّذي لا يقبَلُ شَكًّا ولا تردُّدًا، فذكّرَهُم بآياتِهِ الباهِرة ومَخلوقاتِهِ العَجيبة الَّتي أنشأها منَ العَدَم، شاهدةً على كمالِ قُدرتِهِ وإحكامِ حِكمته، الموجِبة للتَّصديقِ بما جاءَتْ به الرُّسُل من شرائعَ وبعثٍ وجَزاء، مُبتدِئًا بما يُلامِسُ حياتَهم ومَعاشَهُم وهو الأرضُ: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾، ومذكّرًا بما في الأرضِ الَّتي جعَلَها لَهُم فِراشًا دالًّا على كَمالِ قُدرتِه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِهَٰدٗا﴾: أصلُ (مهد) يدلّ عَلَى تَوْطِئَةٍ وتَسْهيلٍ لِلشَّيْءِ، ومِنْهُ المَهْدُ، ومَهَّدْتُ الأمْرَ: وطَّأْتُهُ. وتَمَهَّدَ: تَوَطَّأ، والمِهادُ: الوِطاءُ مِنْ كُلِ شَيْءٍ[1]، والمهدُ: مهدُ الصَّبيِّ. والمِهاد: الفِراش. وقد مهّدتُ الفراشَ مَهْدًا: بَسَطتُهُ، ووطَّأتُهُ. وتمهيدُ الأمور: تَسويتُها وإصلاحُها، وتمهيدُ العُذرِ: بسطُهُ وقَبولُهُ[2]، والمَهْد والمِهاد: المكان المُمَهَّد الموطَّأ[3]. والمرادُ بقوله: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾: أي: فِراشًا لكم موَطَّأً مُذلَّلًا يمكنُ الاستقرارُ عليه لتتصرَّفوا فيها كما شِئتُم[4].

2) ﴿أَوۡتَادٗا﴾: الوَتِدُ: بالكَسر ككتِف: واحِدُ الأوتادِ، وبالفتحِ لغةٌ، وكذلك الوَدُّ في لغةِ مَن يُدغِمُ التّاءَ في الدّال، تقولُ: وتَدْتُ الوَتَدَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مهد).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (مهد).
(3) الرّاغب، المفردات: (مهد).
(4) البقاعيّ، نظم 21/ 195.

وتِدًا[1]، والوَتَدُ: مَعروفٌ، ويُعبّرُ عن ثباتِ الشّيءِ واستقراره، ومنه الآيةُ الكريمةُ: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾؛ لأنَّ الله تعالى لمّا خلقَ الأرضَ على الماءِ جعَلَتْ تتكافأ كالسَّفينة، فأرساها وثبّتَها بالجبالِ لقولِهِ في مَوضِعٍ آخرَ: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [النحل: 15] فهي بمنزلةِ أوتادِ الخَيمة المَشدود عليهِ أطنابُها. وقد يُعبّرُ بذلك عَن ثبات الأمرِ ورُسوخِهِ، ومنه قولُهم: ثبّتَ الله أوتادَك[2]، ومعنى: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾ أي: جعَلنا الجبالَ أوتادًا للأرض لِتَسْكُنَ ولا تتحرَّكَ كما تُرسَى الخيامُ بالأوتاد[3].

❁ المَعْنى الإجماليُّ:

دلائلُ الكونِ العَجيبةِ تحضُّ على الإيمانِ بالقُدرةِ العَظيمة

تُخبرنا الآيتانِ الكريمتانِ عن مَظاهِرِ قدرةِ الله وعِلْمِه وحِكمته ورَحْمَتِه في الكون، لتكونَ دليلًا على توحيدِهِ وصدقِ رسولِهِ ﷺ وضرورةِ الإيمان بالبَعْثِ والحساب، فتخاطِبُ الآيتانِ الإنسانَ بعرضِ دلائلِ هذه القدرةِ قائلةً: ألم نُصَيِّرِ الأرض مُمَهَّدةً لهم صالحةً لاستقرارِهم عليها؟! وجعلنا الجبالَ عليها بمنزلةِ أوتادٍ تمنَعُها من الاضطراب؟.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَوقِعُ جُملة: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ﴾:

دلائلُ المألوفاتِ على عَجائبِ المَخلوقات

جاءتِ الآيتانِ مِن قوله: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ۝٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾ للاستئنافِ البيانيّ، ليُفسّرَ إجمالَ ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، ويُدلِّلَ عليه بما هو مُشاهَدٌ مَحسوس، والسّببُ في ذلك: أنّ أعظَمَ ما جاءَ بِهِ النبيُّ ﷺ ممّا كذّبَ به المشركونَ أمرانِ:

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (وتد)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (الوتد).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (وتد).
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 15/ 30.

الأوّل. إبطالُ إلهيَّةِ الأصنام.

الثاني. إثباتُ البَعثِ والنُّشور.

وهذانِ هما أصلانِ مِن أُصولِ العقيدة، وكانا محلَّ إنكارِهم وتَكذيبِهم الرَّئيس، وسببَ عدائِهم الشَّديد للنَّبيِّ ﷺ، والآيتانِ تذكيرٌ بالأدلّةِ الأرضيَّة الَّتي تدلُّ على قدرةِ الله في الخلقِ والتّدبير، وبالتّالي تؤكِّد إمكانَ البَعْث، وتُبطِلُ مَزاعِمَ المُشركين في ألوهيَّةِ أصنامِهم[1].

بلاغةُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿أَلَمْ﴾:

تقريرُ المُخاطَبين على الحقِّ الثّابتِ بالدَّليلِ القَويم

الاستفهامُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ استفهامٌ تقريريٌّ، والتَّقريرُ هنا على وجهِ النّفي، وهو من أبلغِ أساليبِ التّقرير؛ إذ يجعَلُ المخاطَبَ مُقرًّا بما لا يُمكنُهُ إنكارُهُ، وغالبًا يقَعُ هذا النّوعُ من الاستفهامِ بـ(لم)، والنّفيُ فيه ليسَ هو المقصودَ، بل هو زيادةُ تأكيدٍ للتّقرير، وتثبيتٌ للحُجَّة. فالمعنى الحقيقيُّ: أجعلْنا الأرضَ مِهادًا؟ نعم، جعلْناها كذلك، وهو خطابٌ يُلقَى على وجهِ الإلزام، فمن أنكر البعثَ بعدَ هذا، فقد كابرَ في الواضِحات[2].

بلاغةُ الالتفاتِ في ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾:

شدُّ الانتباه بكلِّ إصرار إلى الحقِّ النّادِّ عنِ الإنكار

في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ التفاتٌ من الغَيبة إلى الخِطاب، فبعدَ أنْ كانَ الحديثُ عنهم بضميرِ الغائبِ، التفتَ السّياقُ إليهم بالخطابِ الصَّريح؛ فمعنى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾، أي: ألم نجعلْ لكُم... وأسلوبُ الالتفات هنا بليغٌ في إفادةِ التّوبيخِ والإلزامِ والتّقْوية مِنْ وقْعِ الحُجَّة على مَسامعهم، حيث يواجَهون بها وجْهاً لوجه في موضِعٍ لا مفرّ فيهِ منَ الاعتراف. وعليهِ فقد خُصّ بهذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 12، 13.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 86، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 13، ودرويش، إعراب القران: 10/ 351.

الالتفات مُنكِرو البعثِ المُظهِرونَ للاستهزاء والتّكذيب تبكيتًا لهم وتقريعًا، وشدًّا للانتباهِ إلى حقيقةٍ لا يُنكِرها ذو عَقلٍ[1].

بلاغةُ التّعبير بالجَعْلِ في ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾:

الخَلْقُ سابِقٌ، والجَعْلُ لاحِق

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ بلفظ: ﴿نَجْعَلِ﴾ بدَلًا من أنْ يُقال (نخلُقْ)، في قولِهِ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾، وذلك لأغراضٍ بلاغيّةٍ ودلاليَّةٍ[2]:

أوّلا - ﴿نَجْعَلِ﴾ تدلُّ على التّصيير والتّقديرِ والتَّسخير، أي إنَّ اللّه صَيّر الأرضَ مِهادًا، أي فراشًا مُمَهَّدًا للرّاحة والمَعيشة، أمّا لفظ (نخلُقُ) فيأتي للتّعبيرِ به عن الإيجادِ من العدمِ، ويتعدَّى إلى الذّات غالبًا أوْ إلى أصلِ الصِّفة الجوهريَّة فيها، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1]، أي أوجدَها من العَدَم.

ثانيًا - ﴿نَجْعَلِ﴾ تليقُ بالمقاماتِ الَّتي يُقصَدُ بها بيانُ الهَيئة أوِ التّهيئة أوِ التّخصيصُ بعدَ الخلق، فالأرضُ مَخلوقةٌ أوّلًا، ثم جُعِلت على هيئةِ المِهاد، أي مهَّدها وبسَطها وصيّرها صالحةً للحَياة.

ثالثًا - في التّعبيرِ بـ﴿نَجْعَلِ﴾ لطافةٌ بلاغيّةٌ، فهو يُشعِرُ بالعِناية الخاصَّة في التّهيئةِ والتَّسخير، وكأنَّ اللّه تعالى يَلفِتُ أنظارَهم إلى هذه النِّعمة الكبرى الَّتي يَرَونَها ويَعيشونَ عليها ليلَ نَهار، لا على مجرَّدِ إيجادِ الأرض، بل على تَهيئَتِها خِصّيصًا لهُم.

سرُّ إيثارِ وصفِ الأرضِ بـ ﴿مِهَٰدًا﴾:

اللُّطف والرَّحمة يَنبعثان منَ المهدِ بكلِّ دقَّة

في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ لم يقُل النّظمُ: (فراشًا) أوْ (بِساطًا) أوْ (قَرارًا)، لكنِ اصطفى لفظَ ﴿مِهَٰدًا﴾؛ لأنَّ المِهاد في الأصل: ما يُمَهَّدُ للصَّبيِّ لينامَ عليه، أي يُسوَّى ويُلَيَّن ليكونَ أرفقَ وأنسَبَ؛ ومِهادُ الطِّفل هو فراشُهُ المُمهَّد المُريح، فاختيارُ (المِهاد) دونَ (الفِراش) أوِ (البِساط)؛ لقَصْدِ الإشعار بالتّسويةِ والتَّهيئةِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 86، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 13.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 14.

والإعداد، فالأرضُ ليستْ مُجرَّدَ بساطٍ واسعٍ أوْ فراشٍ جامِعٍ، بل هي مُهيّأةٌ ومعدّةٌ بدقّةٍ لحياة الإنسان، من استواءِ سَطْحِها، وتوازُنِ أجزائها، وصلاحيَتِها للسُّكنى والزَّرع والمَعاش. وهذا المعنى أوْفى من الفِراش أوِ البِساط. كما أنّ هذا اللَّفظ يُشعِر بالعطفِ والرَّحمة؛ لأنَّ المِهاد في الأصل يُستعمَلُ في حقِّ الطِّفل، والطِّفلُ أعجَزُ الخَلْق وأحوجُهم للرِّعاية، فجاءَ التّعبير بما يدلّ على أنّ الله تعالى أعدّ الأرضَ للإنسان كما يُعِدّ الوالدُ مِهادًا لولدِهِ في عنايةٍ ورحمة. وإذا كان لفظُ (المهاد) يُؤذِن بالرّاحة والهدوء والانتفاع، فهو هنا أنسبُ مع مقامِ الامتنان، إذ يذكّرُهم الله بنعَمِه الّتي تُشعِرُ بالسَّكينة لا بمجرَّدِ البَسْطِ والفرْش[1].

نكتةُ التّعبير بالمَصدَرِ ﴿مِهَٰدًا﴾:

التّعبيرُ بالمَصدر ﴿مِهَٰدًا﴾ في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ من استعمال المصدرِ بمعنى المَفعول، أي: المَمهودُ أوِ المُمَهَّدُ، والمعنى: ألم نجعَلِ الأرضَ مُمَهَّدةً مُسوّاةً صالحةً لاستقراركُم؟ وهذا كما تقولُ: (هذا ضَربُ الأمير) أي: مَضروبُ الأمير. وقد يكونُ من وصفِ الشَّيء بالمصدرِ؛ للدِّلالة على كمالِ اتِّصافِهِ بالصِّفة، حتَّى كأنَّه هو الصِّفةُ عينُها. مثلُ قولك: (زيدٌ عدلٌ)، أي بالغٌ في العدل حتَّى صار هو نفسَ العَدْل. فالمعنى: الأرضُ صارَتْ مِهادًا خالصًا للنّاس، فهي عينُ التّمهيد والرّاحة. وقد يُراد بالمصدرِ معنى النِّسبة باعتبارِ الإضافةِ، أي: (ذاتَ مِهاد)؛ كأن الآيةَ تقول: الأرضُ ذاتُ مِهادٍ للنّاس، فيها استقرارُهُم وتمهيدٌ لأحوالِهم، أوِ (المِهادُ) هنا بمعنى اسمِ الشّيء (المَهْد) أي: جعلنا الأرضَ للخلقِ كالمَهْدِ للصَّبيِّ (السَّرير)، وهو الَّذي مُهِّدَ له فيُنَوَّم عليهِ[2].

إعـــدادُ الأرض بعِناية لسُكنى الإنـسـان بكـلِّ رِعاية

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (بسط، فرش، مهد).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 8.

دلالةُ (الكِناية) في جَعْلِ الأرضِ مِهادًا:

مَن جعلَ الأرضَ مِهادًا قادرٌ على جعلِها هباء

في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ سلكَ القرآنُ مَسلَكًا بديعًا في الاستدلالِ العقليِّ المحسوس، فبدأ بما هو ألصَقُ بحواسّهم، ليقطَعَ العُذر، ويثيرَ التأمُّلَ في قدرة الله: فالأرضُ مفروشةٌ كالمَهْد، مُهيّأةٌ لاستقرارِهم، تصلُحُ للعيش والبناءِ والزِّراعة، وهذا لا يكونُ إلا بقدرةٍ عَظيمة، وإرادةٍ دَقيقة؛ ففيه كنايةٌ عنِ القُدرة على تخريبِ ذلك المَهْد وإفنائِهِ، ووجهُ الاستدلال في ذلك على إمكانِ البعث: أنّه إذا كانَ الله سبحانه جعلَ الأرض مِهادًا بتقديرٍ بالغٍ وانتظامٍ دقيق، فكيف يُنكَرُ عليه أنْ يُعيدَ خلقَ الإنسان بعدَ موتِهِ؟ أليس الَّذي قدّر الأرض بهذا الإتقان قادرًا على إحياءِ المَوْتى، وإعادةِ نظامِ العالَم بعدَ القيامة من جديد؟! فالبدءُ بـ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ هو تمهيد عقليّ وتدريجيّ في الاستدلالِ، يَبدأ من المحسوسِ المُشاهَد، ليقودَ السّامعَ إلى التّسليمِ بالبَعثِ والنُّشور، الَّذي هو محلّ النّزاعِ في السّورة[1].

نكتةُ (الفصل) في ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾:

يُـدرَكُ سرُّ الوحدانيَّةِ والنُّشور بالتّأمّل في مَشاهِدِ الكَونِ المَنظور

فصلَ النّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ وما عُطِف عليه مِن آيات باهرةٍ عمّا قبلَها؛ لأنّ هذه الجُملةَ وقعَتْ موقِعَ الدَّليلِ العقليّ المُقنِع، فجاءَ على جهةِ الاستئنافِ دون العطف، لتكونَ مستقلّةً في الحُجّة، واضحةً في البُرهان[2]، وقد جمعَ الله في هذه الآية الكريمة ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ وما بعدَها بينَ أعظمِ استدلالين؛ هما:

الاستدلالُ على الوحدانيَّة: فقد تفرّدَ الله بالخَلْقِ والإيجاد، وهذه علامةُ ربوبيّتِه وألوهيّتِه، إذ لا خالقَ سِواه.

(1) أبو حيّان، البحر: 10/ 384.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 13.

والاستدلالُ على إمكانِ البَعْث: فإنَّ إعادةَ خلقِ الإنسان أهوَنُ في ميزان العَقْل من خَلْقِ الأرضِ والجِبال والسَّماءِ والماءِ والنَّبات. فإذا أقرّوا بهذه المَخلوقات العَظيمة، فكيف يُنكرونَ البعثَ، وهو دونَها في الصَّنعةِ والهَيئة؟!.

دلالةُ التّشبيهِ البليغِ في جعلِ ﴿ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾:

تمهيدُ الأرض دليلٌ على وقوع يومِ العَرْض

في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ تشبيهٌ بليغٌ للأرض؛ بأنَّها مفروشةٌ مُيسّرة كفراشِ الطِّفل، فشُبِّهت بـ(المِهاد)، أي: الفِراش المفروش بلُطفٍ، دونَ أن تُذكَر أداةُ التّشبيه ولا وجهُهُ، وهذا من بليغِ المَجاز، والتّشبيهُ البليغ هنا يوحي بعِنايةٍ فائقةٍ في الخَلْق؛ فجعلُ الأرض على هذا النَّحوِ من الانبساطِ والتَّيسير لا تقدِرُ عليه إلّا قوَّةٌ مُدبّرةٌ عليمة، وهذا في ذاتِهِ بُرهانٌ على الوحدانيَّة، ودليلٌ على القُدرة على البعث. وفيه أيضاً تذكيرٌ بلُطْفِ اللّه بعبادِهِ وتيسيرِهِ لمَعاشِهم منذُ خَلقَ الأرض، من قبلِ أنْ يَكونوا ويوجَدوا[1].

مُناسبةُ البَدْء بذِكْر خَلْق الأرضِ في الاستدلالِ على البَعث:

مُراعاةُ الأصل مِن القولِ الفَصْل

بدأ النّظمُ بالاستدلالِ على إمكانِ البعث بخلقِ الأرض، في قولِهِ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾؛ لأنَّ البعث مُتعلِّقٌ بخروج النّاسِ من الأرض، فهو إحياءُ المَوْتى مِن بُطونها، فكانتِ الأرضُ أقربَ شيءٍ إلى تصوُّرِ السّامع عندَ ذكرِ القيامة والبَعث، ولهذا جاءَ البدءُ بها في هذا السّياق التّقريريِّ الحواريّ. فالبعثُ يبدَأُ منَ القبور، والقبورُ في الأرض، فمِن المناسب أنْ يُستهلّ الاستدلالُ بالأصلِ الَّذي يكونُ منهُ النُّشور[2]. وأيضًا ذكرَ الأرضَ أوّلًا لتقديمها قبلَ السَّماء في ترتيبِ الأدلّة، ففي هذه الآياتِ لم يُبدأ بذكرِ خَلْقِ السَّماوات كما في مواضِعَ أُخرى؛ لأنَّ الغرضَ هنا ليس بيانَ عظمةِ الخَلْق مُطلقًا،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 13، 14.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 14.

بل بيانَ قربِ البَعْثِ وإمكانِه، ولذلك اقتُصر على ذكرِ الأرضِ أوَّلًا؛ لأنَّها المَهْدُ الَّذي يُبعث منه النّاس، ثمَّ تتابعَتْ دلائلُ القدرة في المَخلوقات الأُخرى.

بلاغةُ التَّشبيهِ في قولِهِ: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾:

مَن ثبّتَ الأوتاد قادِرٌ على تَسييرها بكلِّ استِعداد

قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾ يتضمَّنُ تشبيهًا بليغًا، حيثُ شُبّهت الجبالُ بالأوتادِ تشبيهًا حُذِفَتْ منه أداةُ التَّشبيه ووجهُ الشَّبه، فصارَ الكلامُ أوجزَ وأبلغَ، والمعنى: الجبالُ كأنَّها أوتادٌ للأرضِ[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مَنْ جعلَها ثابتةً كالأوتاد قادرٌ على تسييرِها وإزالتِها فلا داعيَ للعِناد.

بلاغةُ تعقيبِ ذكرِ الجبالِ للأرض:

مُراعاةُ الوَظيفة والصّورة للتّأمُّلِ في المخلوقاتِ الكَبيرة

لمّا شُبّهتِ الأرضُ بالمِهاد (أي: كالفراش الممهّد داخلَ البيت)، تبادَرَ إلى الذّهن أنَّ المهادَ يكون في بيتٍ، فناسبَ أنْ تُشبَّه الجبالُ بأوتادِ ذلك البيت، أي بالأعمدةِ الَّتي تثبِّتُ الخيمة، وهذا التّشبيهُ يُصوّرُ تماسُك الأرض وثباتَها، رغم أنَّ الجبال بارزةٌ وناتئةٌ، ممّا قد يُظنّ أنَّه يُخِلّ بمهاديَّة الأرض. ويحتملُ أنَّ التّشبيه بالأوتادِ لا يقتصِرُ على الصّورةِ فقط، بل يشمَلُ الوظيفةَ أيضًا، أي: كما تُثبّتُ الأوتادُ الخيامَ، تُثبِّتُ الجبالُ الأرضَ وتحفظُ توازُنَها. وهذا المعنى قد فُهم قديمًا بفِطرةِ العرب، وثبتَهُ العلْمُ الحديثُ وأقرّهُ من حيثُ كونُ الجبالِ مَغروسةً في الأرضِ كالأوتاد؛ لتمنعَ اضطرابَ القِشرة الأرضيَّة[2].

دلالةُ الخِطاب بذكرِ الجبالِ بعدَ الأرض:

لـلـجـبـال في الحَياة مَنافع داعيةٌ للعَجَب من قُدرةِ الصّانع

ذكرُ النّظم (الجبال) في الآيةِ بعدَ قولِهِ: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾ لم يكنْ مجرّدَ وصفٍ لتكوينِ الأرض، بل تضمّنَ إشارةً إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 14، 15.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 14، 15.

ما تحملُهُ من منافعَ عظيمةٍ للنّاس، وخاصَّةً العرب، الَّذين كانوا يعيشونَ في بيئاتٍ شديدةِ الارتباطِ بالجبال. ومِن تلك المَنافِع:

أنَّها مَسايلُ الأودية: فهي مُنحدَراتٌ تنسابُ فيها المياهُ، ممّا يُعينُهُم على الزِّراعةِ والرّيِّ.

وقَراراتُ المياه: أي مَواضِعُ استقرارِ الماءِ في سُفوحِها، حيث تتجمّعُ مياهُ الأمطار.

والمَراعي الخضراءُ: فغالبًا ما تنمو الأعشابُ والنّباتاتُ في سُفوح الجبالِ ووديانِها، فتكونُ مراعي خضراء للأنعام.

والتَّحصّنُ: حيثُ تُعدُّ ملجأً في أوقاتِ الخَوف؛ لما فيها من مَنَعَةٍ ووُعورةٍ.

ومراقبةُ الطُّرُق: فالمُرتفعات تُستخدمُ لمُراقبةِ القوافِلِ أوِ الأعداءِ القادِمينَ[1].

التّناسُقُ البلاغيُّ في إدماجِ (الجبال) بينَ (الأرضِ والإنسان):

لا تستقيمُ الحياةُ الإنسانيَّة إلّا بعدَ ثباتِ الكُرةِ الأرضيَّة

جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾ إدماجًا بلاغيًا - أي إدراجًا في السّياق دونَ كونِهِ أصلًا في محورِ الخِطاب - فدخلَتِ الجُملة بينَ قوله: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾: الدّالّ على خلقِ الأرضِ وتَمهيدها. وقولِه: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾: وهو بيانُ ما يخصُّ الإنسانَ نفسَه من الخَلْقِ والتَّدبير. فذِكرُ الجبال هنا اعتراضٌ بيانيٌّ يجمَعُ بينَ المعنى الكونيِّ والمعنى النِّعَمي (أي النِّعمة)، وهو من أساليبِ القُرآن الرَّفيعة في جَمْعِ الأدلَّةِ وحَشْدِ القَرائن[2].

سرُّ إيثارِ وصفِ الجبالِ بـ(الأوتاد):

الأوتادُ ثباتٌ للغَير، والرَّواسي ثباتٌ للنّفس والغَير

التّعبيرُ القرآنيُّ في (سورةِ النّبأ) جاء بلفظِ (الأوتاد) لا (الرّواسي) فقال تعالى: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾؛ لأنّ الأوتادَ جمعُ (الوَتَد):

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 15.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 15.

وهو ما يُغرَزُ في الأرضِ لتثبيتِ الخيام، والجبالُ شبّهَها القرآن بالأوتاد؛ لأنها تُثبّت الأرضَ وتَربِطُ قِشرتَها، كما يَربِطُ الوتدُ الخيمةَ[1]. والفرقُ بين (الأوتاد) و(الرَّواسي) أنّ الرَّواسيَ: فيها معنى الثَّباتِ والرُّسوخ، فهي رواسِخُ ثوابتُ في نفسِها[2] - يعني الجبال - ولذلك لا تتحرّكُ لِكبَرِها وثِقَلِها، وهي مُرسيَةٌ لغَيرها فهي مُثَبِّتَة للأرض، ولذلك قال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: 15]، أمّا الأوتادُ فتُبرزُ مَعنى التّثبيتِ للغَير، أي إنّ وظيفةَ الجبال ليستْ في ذاتِها فقط، بل في حِفْظِ الأرضِ من الاضطِراب؛ فالأوتاد تركّز على معنى الثّبوت المُتعدّي لا الذّاتيّ.

ووجهُ الإيثار في هذا الموضِع: أنّ سياقَ سورةِ (النّبأ) يعدِّدُ النّعَم على النّاس: (الأرضُ مهادٌ، والنّومُ سُباتٌ، والجبالُ أوتادٌ... إلخ).

فجاءَ التّعبير بـ (الأوتاد) ليُبرزَ أنَّ جعلَ الجبالِ نعمةً راجعٌ إلى الإنسانِ نفسِه؛ لأنها تُثبّتُ الأرضَ ليستقرَّ عليها ويَهنأ بالعيش فيها. ففي (الأوتاد) مناسبةٌ معَ المشهدِ الكونيِّ في السّورة، فـ(المهاد) للأرض يوحي بالرّاحة والاستقرار، و(الأوتاد) للجبالِ يُكمّل المعنى: فالمهادُ لا يَستقرُ إلا إذا ثُبِّت بالأوتاد. في حين أنَّ (الرواسي) أليقُ بمواضِعِ الحديث عن العَظمةِ والقُدرة، كما في قولِه: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: 15].

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ: (وتد).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (رسا).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والستون،
من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والستون، من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 65 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-646-17-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 65 : المجلد الخامس والستون، من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-646-17-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2525407 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"